﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢﴾ [الأنعام: 2]

❁ مناسبةُ الآيةِ لما قبلَها:

الـرَّبـطُ بـين خـلْـقِ الأكـوانِ وخلْقِ الإنسانِ، لـدحـضِ الإفـكِ والكفرانِ

لمّا استدلَّ في الآيةِ السّابقةِ بخلقِ السّماواتِ والأرضِ، وجعلِ الظُّلماتِ والنّورِ، على وجود الصّانعِ الحكيمِ، أتبعَه بخلقِ الإنسانِ من طيّن، فأَبْطَلَ كفرَهم بالبعثِ مع مشاهدتهم ما يوجبُ الإيمانَ به، بعد إبطالِ إشراكِهم به مع معاينتهم دلائلَ وحدانيَّتِه، وفي ذلك استدلالٌ بخَلْقِ العالَمِ الأصغرِ بعد العالَمِ الأكبرِ، وكلُّها واقعةٌ عنده تعالى بين الكاف والنّون.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طِينٍ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مُجرَّدٌ، الجذرُ اللّغويُّ منه (طَيَنَ)، والطّينُ معروفٌ، وأصلُه منَ الأرض، ويُقال: فلانٌ منَ الطّينةِ الأولى نسبةً إلى الخِلْقة والجِبِلَّة، وهو أيضًا الأصل في معناه، وهو الطّين المعروف[1].

و"الطّينُ: التّرابُ والماءُ المختلطُ، وقد يسمّى بذلك وإن زال عنه قوّةُ الماء، قال تعالى: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ۝١١﴾ [الصّافّات: 11][2]، والطّينُ مذكورٌ في القرآن الكريم في مواضعَ كثيرةٍ كلّها بمعنى المادَّة المعروفة المتكوّنة من امتزاج التُّرابِ بالماء[3].

2) ﴿قَضَىٰٓ﴾: فعلٌ ماضٍ معتلّ الآخر، جذرُه اللّغويُّ من (قَضَيَ)؛ لأنّ مضارعَه (يقضي)، ومنه القضاء بمعنى: الحُكْم؛ أي: حَكَمَ،

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (طين).
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (طين).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طين).

وهو الأصل في معناه؛ أي: أَنْ يُحْكِمَ الأَمْرَ ويُتْقِنَهُ، قال تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصّلت: 12]، وعمومُ لفظِ القضاءِ وما اشتُقَّ منه يأتي بمعنى الحُكْم[1]، وهو منَ الألفاظِ المُشْتَرَكَةِ الدَّلالةِ، ويتعيّنُ معناه بحسب السّياق الواردِ فيه، وهو هنا بمعنى إحكامِ الأمرِ وإمضائِه.

3) ﴿أَجَلًا﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مُجرَّدٌ، جذرُه اللّغويُّ من (أَجَلَ)، وهو مُنتهى الوقت في انقضاء حياةِ الإنسانِ؛ أي: موته، وهو نقيضُ العاجل، وهو قريبٌ من أحد أصولِ معناه الخمسة عند ابن فارس[2].

والأجلُ: المدّةُ المقرّرةُ للشَّيء، ويُستعمَل كثيرًا للمدّة المقرَّرةِ المضروبةِ لحياة الإنسان في الدّنيا، فيُعبَّر عن ذلك بدُنوِّ الأجل، وهو حدُّ الموت، وحلولُ أجلِ الإنسان[3].

ومعناه في الآية: البقاءُ في الدّنيا حتّى الموت، أو البقاءُ في القبور حتّى النُّشور، أو النَّومُ حتّى الاستيقاظ[4].

4) ﴿مُّسَمًّى﴾: اسمُ مفعولٍ منَ الفعل المزيدِ (سمّى)، الجذرُ اللّغويُّ منه (سمو)؛ لأنّه مُشتقٌّ منَ السُّموِّ[5] على أرجح الأقوالِ، والفعل منه (سَما يَسْمو) فآخره واو، والسّموّ هو الارتفاع والعلوّ، "وسما إليه بصري؛ أي: ارتفعَ بصرُك إليه، وإذا رُفِعَ لك شيءٌ من بعيد فاستبنتَه"، والأصلُ في السّموّ العلوُّ والارتفاعُ أيضًا، والاسمُ هنا أُضيفَ إلى الضّمير العائد عليه سبحانه؛ فيرادُ به عند إضافتِه له تعالى ما يدلُّ على الذّات الإلهيّةِ، مع صفةِ الكمالِ القائمةِ به[6]. ومعنى المُسمَّى في هذه الآية - وهو صفةٌ للأجل - هو مدّةُ الأجلِ المضروبِ لبَعثكم يوم القيامة عند اللّه[7].

5) ﴿تَمْتَرُونَ﴾: فعل مضارع دالٌّ على الحال والاستقبال، مسنَدٌ إلى الجماعة، الجذرُ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيدي، تاج العروس: (قضي).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أجل).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (أجل).
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/8.
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: 38/305.
(6) الخليل، العين: (سمو)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سمو)، والرّاغب، المفردات: (كلم)
(7) الطّبريّ، جامع البيان: 11/259.

اللّغويُّ منه (مَوَرَ)، من (مارَ يمورُ مَوْرًا)، ومعنى المَوْر: التّردُّد وعدم الاستقرار، "والبعير يمورُ عَضُداه، إذا تردَّدا في عرض جنبيه. والطّعنةُ تمورُ إذا مالت يمينًا أو شمالاً. والدّماءُ تمور في وجهِ الأرضِ، إذا انصبّت فتردّدت"، ولخّص ابنُ فارس أصلَ معناه في التّردُّد[1]. ومعنى ﴿تَمۡتَرُونَ﴾ في الآية: تشكّون وتجادلون؛ تشكّون منَ المِرْيَةِ، أو تجادلون منَ المِراءِ[2]؛ فالشّاكُّ يكون مُتردّدًا مُتحيّرًا لا استقرارَ له.

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

بيانُ خَلقِ الإنسانِ، وامتحانُهُ في حالِهِ ومآلِهِ، ليؤمِنَ باللهِ دونَ امتراءٍ

ابتدأَ الحقُّ ﷻ الآيةَ بالضّمير ﴿هُوَ﴾ إشارةً إليه ﷻ الّذي خلقهم من طين، فأثبتَ أصلَ الإنسان، ثمّ جعل للابتلاء والامتحان أجلًا، وهو الدُّنيا، وجعل للعاقبة أجلًا، وهو الآخرة بعدَ البعثِ، وهو أجلٌ معيّنٌ عنده، لا يطّلعُ عليه سواه سبحانه، وبعدَ ذلك كلّه أنتم تشكّون في قدرةِ اللّه تعالى على البعث بعدَ الموتِ، ولا تؤمنون!

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ:

السِّياقُ تعجُّبٌ من إنكارِهم الأجلَ المسمَّى بضلالِهم المعمَّى

في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ استئنافٌ لغرضٍ آخر للتَّعجيب من حال المشركين، إذ أنكروا البعثَ؛ فإنَّه ذكّرهم ابتداءً بخلق السّماواتِ والأرضِ، وعجِبَ مِن حالهم في تسويتهم ما لم يخلقِ السّماواتِ ولا الأرضَ باللّه تعالى في الإلهيَّة، ثمّ ذكَّرهم بخلقهم الأوَّل، وعجِبَ مِن حالهم كيف جمعوا بين الاعتراف بأنَّ اللّه هو خالقُهم الخلقَ الأوَّلَ فكيف يمترون في الخلق الثّاني[3].

(1) الخليل، العين، ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مور).
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/104.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/129.

سرُّ التَّعبيرِ بضميرِ الشَّأنِ ﴿هُوَ﴾ لمتقدِّمٍ على مفسِّرِهِ:

التَّشويقُ لما بعد الضَّمير، تحصيلٌ للبيان بعدَ الغُموضِ

في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، ﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾ ابتداءٌ وخبرٌ[1]، والضّميرُ ﴿هُوَ﴾ هنا ضميرُ غَيْبَةٍ، وضميرُ الغَيْبَةِ يقتضي مَرجِعًا يفسِّره يكون سابقًا عليه، إلّا أنّ مرجعَه هنا مُتقدّمٌ عليه، فهو ضميرُ الشّأن[2]، وسرُّ التّعبيرِ بضمير الشّأنِ الّذي يكون مُتقدِّمًا على مُفسِّرِه إفادةُ التّشويقِ؛ فإنّ المؤمنَ مُترقِّبٌ ومُتشوِّقٌ لما بعدَ الضّمير؛ فيكون أحسنَ وقعًا في النّفس، وأشدَّ تمكّنًا لما فيه منَ البيانِ بعدَ الغموض.

فائدةُ أسلوبِ القَصْرِ في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾:

الدَّعوةُ إلى العودةِ للخالقِ قبلَ انقضاءِ الأجلِ مع الخلائقِ

في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، ﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾ جملةٌ ابتدائيّةٌ من معرفتين؛ الضَّمير والاسم الموصول، فالمسنَدُ والمسنَدُ إليه مُعرَّفان، والجملةُ تفيدُ القصرَ في ركنَيْها ومُتَعَلَّقِها، ومعنى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾؛ أي: هو خالقُكم على جهةِ القَصْرِ والتَّخصيصِ لا غيره[3]. وفيه إشارةٌ إلى الحضِّ على الرُّجوعِ والعودةِ إلى الخالق بالإيمان به، والتَّوبةِ والإنابةِ إليه قبلَ انقضاءِ الأجل.

إعجازٌ مبينٌ في قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾:

الإنسانُ والأرضُ مُشتركانِ في عناصِرِهما؛ لأنَّه مخلوقٌ من طينٍ

من خلال استعراضِ آياتِ القرآنِ الكريمِ يتّضحُ لنا أنَّ اللهَ ﷻ قد خلقَ الإنسانَ منَ الأرض، وهي تحوي التُّرابَ والماءَ، وباختلاطهما يتكوَّنُ الطّين، ثمّ يصيرُ الطّينُ لازبًا ذا لزوجة، ثمّ تتغيَّرُ رائحتُه، فيصيرُ حَمَأً مَسْنونًا، ثمّ يتبخَّرُ منه بعضُ الماء، ويصيرُ صَلصالًا كالفَخّار.

ولقد ثَبَتَ في السُّنَّةِ النَّبَويَّةِ أنَّ الطّينَ الّذي خُلِقَ منه أبونا آدم عليه السلام

(1) النّحّاس، إعراب القرآن: 2/3.
(2) ضميرُ غَيبةٍ تليه جملة تفسّره، مثل: ﴿قُلْ هوَ ٱللَّـهُ أَحَدٌ﴾. ابن جنّي، الخصائص: 1/106.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/129.

أُخِذَ من جميع الأرض: «فَجاءَ بنو آدَمَ على قَدْرِ الأَرْضِ، جاءَ منهمُ الأَبْيَضُ والأَحْمَرُ والأَسْوَدُ وبَيْنَ ذَلِكَ، والخَبيثُ والطَّيِّبُ، والسَّهْلُ والحَزْنُ، وبَيْنَ ذَلِكَ»[1]. كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الرّوم: 22]. وخَلَقَ اللّهُ أُمَّنا حوّاءَ عليها السّلام من ضِلَعِ آدمَ، وخَلَقَ عيسى عليه السلام من أمِّه مريم عليها السّلام، من دون أبٍ، وخَلَقَ الذُّرِّيَّةَ كلَّها من نُطفةِ الذَّكَرِ وبَوَيْضَةِ الأُنثى، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النّساء: 1]؛ للدَّلالة على طلاقةِ قدرةِ اللّهِ تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: 54].

فقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ يَحتملُ أن يكونَ المعنى: خَلَقَ أصلَكم آدمَ عليه السلام من طينٍ، فيكون إيجازًا بالحذف، و(مِن) ابتدائيَّة أو تبعيضيّة على اعتدادِ أنَّ أبانا آدمَ عليه السلام خُلِقَ من قبضةٍ من ترابِ الأرضِ، كما ورد في الحديث[2].

بَراعَةُ أُسلوبِ البَحثِ من خلالِ الآية:

قَـلْـبُ الـدَّلِـيـلِ على المُخالِفِ، بِجَعْلِ دَلِيلِهِ دلِـيـلًا عـلـيـهِ، مِن أقوى طُرُقِ الاستدلال

في قولِ اللّه عزّ وجلّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ أسلوبُ البَحثِ[3]، الّذي يُسمّيه جماعةٌ: المذهبَ الكلاميَّ، وذلك أنَّ في التَّنصيص على مادَّةِ الخَلقِ بقولِه: ﴿مِّن طِينٍ﴾ إظهارًا لفسادِ استدلالِ المُشركينَ على إنكارِ الخَلقِ الثّاني في الآخِرَةِ؛ وذلك أنَّهم استَبعَدوا إعادَةَ خلقِ الإنسانِ بعد أن يصيرَ ترابًا، وهُم يُقرّونَ أنَّهم يصيرونَ بعدَ الموتِ ترابًا، ويُقرّون أيضًا أنَّهم خُلِقوا من ترابٍ، فاستدَلّوا على إنكارِ الخلقِ الثّاني بِما هو حقيقٌ أن يكونَ دليلًا على إمكانِه، ووجهُ ذلك: أنَّ صيرورَتَهم إلى ترابٍ يُقرِّبُ إعادَةَ خَلقِهم؛ لكونِهم قَد صاروا

(1) أحمد، المسند: الحديث رقم: (19582)، ورقم: (19642).
(2) الإمام أحمد، المسند: الحديث رقم: (19582).
(3) ابن عبد الحقّ العمريّ، درر الفرائد المستحسنة، ص: 443.

إلى مادَّةِ الخَلقِ الأوَّلِ، وهم مُقِرّونَ بِها، وهذا القَدحُ في استِدلالِ المُشرِكينَ يُسمَّى في عِلمِ الجدَلِ: القولَ بالموجَبِ. والمُنبَّهُ عليهِ من خطأِ استدلالِهم يُقال لَهُ: فسادُ الوضعِ[1].

بلاغةُ الالتفاتِ من الغَيبة إلى الخطاب:

تلويـنُ أساليبِ الـخـطـابِ، ذو أثـرٍ في التَّوبيخِ والـتَّـشـنـيـعِ عليهم

قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ مبنيٌّ على الخطاب، وفيه التفاتٌ عن قوله تعالى في الآية السّابقة: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ فقد بناها هنا على الغَيبة، "والالتفاتُ لمزيدِ التّشنيعِ والتّوبيخِ؛ أي: ابتدأَ خلقَكم منهُ؛ فإنّه المادّةُ الأولى للكُلِّ، لما أنّه منشأُ آدمَ الذي هو أبو البَشَرِ"[2].

إضافةُ الخَلْقِ إلى ضميرِ المخاطَبين في قوله: ﴿خَلَقَكُم﴾:

إشارةٌ إلى وجوبِ الإيمانِ بالبَعْثِ، لتعلُّقِه بالمصيرِ الأخيرِ

لفظة ﴿خَلَقَكُم﴾ في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، جاءت فيها إضافةُ الخلْقِ إلى ضمير المُخاطَبين؛ للإشارة إلى "إيجابِ الإيمانِ بالبعثِ، وبطلانِ الامتراءِ؛ لتوضيحِ منهاجِ القياسِ، وللمبالغةِ في إزاحةِ الاشتباهِ والالتباسِ، مع ما فيه من تحقيقِ الحقّ"[3]؛ فإنّ بعثَكم منَ الطّين أمرٌ مُحقَّقٌ.

دِلالَةُ (ثُمَّ) في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾:

إفـادةُ التَّرتيبِ، بصدورِ القضاءِ قـبـلَ الـخـلـقِ، ووقـوعِ المقدورِ بعد الخَلقِ

(ثُمَّ) من قَولِ اللهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ على أصلِها في الدِّلالَةِ على التَّرتيبِ، وفي ذلكَ مَسلَكانِ: أحدُهُما: أن تكونَ للتَّرتيبِ في الذِّكرِ دونَ التَّرتيبِ في الزَّمانِ، وذلك إذا حُمِلَ معنَى القضاءِ على وجهِ الكِتابَةِ والتقديرِ، إذ إنّ ذلك متقدّمٌ وهو مكتوبٌ قبل إنشاءِ الخلق.

والآخَرُ: أن تكونَ للتَّرتيبِ في الزَّمانِ، إذا جاءت ﴿قَضَىٰٓ﴾ بمعنَى: أَظهَرَ، فيقعُ المقدور ويحدُث بعد الخلق[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/130.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/163.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/163.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/431.

ويجوزُ أن يُرادَ بـ (ثُمَّ) مَعنَى المُهلَةِ، إذا حُمِلَ مَعنَى ﴿قَضَىٰٓ﴾ على: (استَوفَى)، فقَضَى لهُ أجلَهُ، أي: استَوفاهُ لَهُ، ومَعنَى المُهلَة في (ثُمَّ) هيَ باعتبار التَّوزيعِ؛ أي: أنَّ اللّه ﷻ خلقَ كُلَّ فَردٍ مِنَ البشَرِ ثُمَّ قضَى لَهُ أَجَلَهُ[1].

دلالةُ لفظ ﴿أَجَلًا﴾، ولفظِ ﴿أَجَلُ﴾ في السِّياقِ:

دلالةُ النَّصبِ في الجملة الفعليَّةِ التَّغيُّرُ، ودلالةُ الرَّفْعِ في الجملة الاسميَّةِ الثُّبوتُ

قوله تعالى: ﴿قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلُ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾: في الآية أَجَلان؛ أَجَلٌ منصوبٌ بـ ﴿قَضَىٰٓ﴾، والأجلُ الثّاني على الابتداء[2]؛ ولذلك يحسنُ الوقوفُ على الأجل الأوّل، والواو فيما بعده للاستئناف[3]، ولم يأتِ معطوفًا على ﴿أَجَلًا﴾، "لأنّ الأجلَ المسمّى الّذي عنده لا يعلمُه غيره، والأجلُ الأوّلُ أجلُ الدّنيا وانقضاؤها"[4]، لكون المنصوب ﴿أَجَلًا﴾ واقعًا في جملة فعلية، والمرفوع ﴿وَأَجَلُ﴾ واقعًا في جملة اسمية، والجملة الاسمية دالّة على الثّبوت. وفيه مناسبةٌ بيّنةٌ في أنّ الأجلَ الأوّلَ منقطعٌ، وهو أجلُ الدُّنيا، والأجلُ الثّاني ثابتٌ، وهو أجلُ الآخرة.

تقديمُ ﴿أَجَلًا﴾ على ﴿وَأَجَلُ مُّسَمًّى﴾:

ترتيبُ الأجلِ وَفقَ التَّقدُّمِ الزَّمنيِّ لفظًا ومعنًى، أساسٌ في فَهمِ المرادِ مِنَ السِّياق

قوله تعالى: ﴿قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلُ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾: في الآية أَجَلان، قُدِّمَ أَحَدُهُما على الآخر، وسببُ تقديم الأوّل ﴿أَجَلًا﴾ على الثّاني ﴿وَأَجَلُ مُّسَمًّى﴾ من باب التّقدّم الزّمنيّ لفظًا ومعنًى، أمّا من جهة اللّفظِ فإنّ النَّكرةَ المُطلَقَةَ سابقةُ النّكرةَ المخصّصةَ، وأمّا من جهة المعنى فلأنّ "الأجلَ الأوّلَ منَ الولادةِ إلى الموت، والأجلَ الثّانيَ منَ الموت إلى البعث... وقال مجاهد وسعيد بن جُبير: الأجلُ الأوّلُ أجلُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/130.
(2) الأخفش، معاني القرآن: 1/293.
(3) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/362.
(4) الأنباريّ، إيضاح الوقف والابتداء: 2/629.

الدُّنيا، والأجلُ الثّاني أجلُ الآخرة"[1]، فأجلُ الدّنيا مُتقدِّمٌ على أجل الآخرة طبيعةً.

دلالةُ تنكيرِ ﴿أَجَلًا﴾، وتخصيصِ ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾:

الأجـلُ الأوّلُ زائـلٌ، والأجـلُ الثّاني دائمٌ

ورد في قوله تعالى: ﴿قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ أجلان؛ الأوّلُ: نكرةٌ محضةٌ ﴿أَجَلًا﴾، والثّاني مخصَّصةٌ ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾، والتَّخصيصُ يقرّب النّكرةَ منَ التَّعريف في جواز الابتداء بها؛ لأنّها ذاتُ فائدة، فهنا تخصّصَ بالصّفة؛ فأصبح قريبًا منَ المعرفة[2] فـ "الأجلُ الأوّلُ هو أجلُ الموتِ، والأجلُ المُسمَّى عندَ اللّه هو أجلُ القيامة؛ لأنَّ مدَّةَ حياتهم في الآخرة لا آخرةَ لها ولا انقضاءَ، ولا يعلم أحدٌ كيّفيَّةَ الحالِ في هذا الأجل إلّا اللّه ﷻ"[3].

دلالةُ تقديمِ النَّكِرةِ المخصَّصةِ ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ على الظَّرف ﴿عِندَهُۥ﴾:

إفـادةُ التَّفخيمِ والتَّعظيمِ، هو العلَّةُ في التَّأخير والتَّقديم

لفظة ﴿وَأَجَلٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ نكرة، وقد خصّصها بالوصف ﴿مُّسَمًّى﴾، وقد قدّمَها على الظّرف ﴿عِندَهُۥ﴾ أنّ المعنى: وأيّ أجلٍ مُسمّى عنده! تعظيمًا لشأن السّاعة، فلمّا جرى فيه هذا المعنى وجبَ التّقديم[4]، فالتّقديمُ جاء هنا لأجل التّعظيم والتّفخيم.

دلالةُ التّعبيرِ بالظَّرفِ ﴿عِندَهُۥ﴾:

لكلّ أجلٍ كتابٌ، واللـه وحـدَهُ المـطَّـلِـعُ على ميقاتِ المآبِ

قوله تعالى: ﴿قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾: ﴿قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ ذكرَ آجالَ الماضين قبله، وآجالُ هؤلاء المقضيّةُ باتَت معلومةً، أمّا مَن لم يقضِ أجلَه فقد عبّر عنها بقوله: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾، و"المرادُ منه آجالُ الباقين منَ الخلق... فهم بعدُ لم يموتوا، فلم

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/127.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/322.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/480. وجاء هذا التعليل على القول بأن الأجل الثاني هو أجلُ يوم القيامة.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/322.

تَصِرْ آجالُهم معلومةً؛ فلهذا المعنى قال: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾"[1]؛ أي: لا يعلمُها سواهُ تعالى.

بَراعَةُ الاعتِراضِ في ثنايا سياق الآية الكريمة:

في قوله اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ اعتراضٌ بينَ قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، وقولِه: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، ونُكتَةُ هذا الاعتِراضِ: إعلامُ الخَلقِ بأنَّ اللهَ ﷻ عالمٌ بآجالِ النّاسِ كُلِّهم، ردًّا على مقالَةِ المُشرِكينَ الزّاعمَةِ أنَّه إنَّما يُهلِكُهُمُ الدَّهرُ[2].

اعتقادُ المُشرِكينَ، أنَّهُ إنَّما يُهلِكُهُمُ الدَّهرُ، باطلٌ من القول والمعتَقَدِ

بلاغةُ التَّعبيرِ بجملة: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ عطفَ هذه الجملةَ على ما سبقها، وصدَّرَها بالضّمير، وسرُّ ذلك إظهارُ العَجَب من حالهم بعد تذكيرهم بخلق السّماواتِ والأرضِ، وعجبُه مِن أنّهم ساوَوا بين مَن يَخْلُقُ ومَن لا يَخلُقُ، "ثمَّ ذكَّرهم بخَلْقهم الأوَّل، وعَجِبَ مِن حالهم كيف جمعوا بين الاعتراف بأنّ اللهَ هو خالقُهم الخَلْقَ الأوّل، فكيف يمترون في الخلق الثّاني؟!"[3]، فكيف لهم بعد كلّ ذلك أن يشكّكوا في ما جئنا به منَ الخَلق؟!.

الاعترافُ بخَلْقٍ دونَ خَلْقٍ، محضُ افتراءٍ وامتراءٍ

إفادة ﴿ثُمَّ﴾ جملةً مِنَ المعاني:

حرفُ العطف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ قد يومئُ إلى معنًى له علاقة بجملةٍ سابقةٍ، وهي قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾؛ فيدلّ هنا على قبح هؤلاء المُخاطَبين وتوبيخِهم؛ لأنّه تعالى قد خلقهم، وبيّنَ أصلَ خَلْقِهم، ثمّ بعد ذلك هُمْ يَمْترون، ويُشكّكون بذلك؛ فقد قابلوا الإنعامَ والإكرامَ بالمماراة والشّكّ بعد مهلةٍ وتراخٍ، وهذا ما تحقّقُه ﴿ثُمَّ﴾ فيما لا تحقّقُه حروفُ العطفِ الأخرى.

العَجَبُ من مقابَلةِ المشركين إنعامَ اللهِ بالمماراةِ بعدَ إمهالٍ وطولِ بيان

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/162، ويأتي هذا التعليل على ضوء معنى: أنّ الأجل الثاني هو الأجل الذي لم ينقضِ بعدُ.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 130 - 131/7.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/129.

وقد تفيدُ ﴿ثُمَّ﴾ التَّعجيبَ من حالهم، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، فحرفُ العطفِ هذا فيه معنى آخرُ بعد عطفِه هذه الجملة على سابقتها، وهي قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾؛ وهذا المعنى هو التَّعجيبُ من حالِ هؤلاء؛ فإنّ مماراةَ هؤلاء، وارتيابَهم بعد أن علموا أنّه خالقُهم، وأنّ أصلَهم من طين لَهوَ أمرٌ يثيرُ العجبَ من حالهم، لعلّه أعجبُ مِن علمِهم ذاك.

تحتملُ معنى (ثُمَّ) الاستبعاد

وتحتملُ ﴿ثُمَّ﴾ معنى الاستبعاد، "والمرادُ استبعادُ امترائهم في وقوعِ البعثِ، وتحقّقه في نفسه مع مشاهدتهم في أنفسهم منَ الشَّواهد ما يقعُ مادَّةَ ذلك بالكلِّيّة، فإنَّ مَن قَدَر على إفاضة الحياةِ على مادَّةٍ غير مستعدّة لشيءٍ من ذلك، كان أوضحَ اقتدارًا على إقامته على مادّة قد استعدّت له، وقارنته مُدَّة"[1].

نُكتَةُ ذِكرِ المُسنَدِ إليهِ ﴿أَنتُمْ﴾:

تقريعُ المُشركينَ، جزاءُ امترائِهم

في قَولِ اللّهِ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، جيءَ بالمسنَدِ إلَيهِ ﴿أَنتُمْ﴾ ضميرًا بارزًا في قَولِ اللهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، والمرادُ بهِمُ المُشركونَ؛ لإرادَةِ المبالغَةِ في التَّقريعِ والتَّوبيخِ[2].

دلالَةُ الجُملَةِ الاسميَّةِ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾:

شِدَّةُ العِنادِ، تُلهي عَنِ النَّظَرِ في الآياتِ الكَونيَّةِ والشَّرعيَّةِ

في التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ إيماءٌ إلى استمرارِهم في باطلِهم بالشَّكِّ في قُدرَةِ اللّهِ ﷻ على البَعثِ، وأنَّ الأدلَّةَ والبراهينَ الّتي نصَبَها اللّهُ ﷻ لإثباتِهِ لَم يُزَحزِحْ هذا الاعتقادَ الفاسدَ مِن قلوبِهِم؛ لقوَّةِ عنادِهم، واستكبارِهم عنِ التَّأمُّلِ في أدلَّةِ ذلك.

سِرُّ تَقديمِ المُسنَدِ إليهِ على المُسنَدِ الفِعليِّ:

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، قُدِّمَ فيه المسنَدُ إليه

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/84.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/131.

﴿أَنتُمْ﴾ على المسنَدِ الفعليِّ ﴿تَمْتَرُونَ﴾ من قولِ اللهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾؛ لتقويَةِ الإسنادِ؛ لاقتضائِهِ تَكرارَهُ، فقد أُسنِدَ الامتراءُ إلى ضميرِ المُشركين ﴿أَنتُمْ﴾، وهو من إسنادِ الخبرِ إلى المبتدَأ، وأُسنِدَ الامتراءُ أيضًا إلى واوِ الجماعةِ الرّاجعةِ إليهم، وهوَ من إسنادِ الفعلِ إلى فاعِلِهِ.

تَأكيدُ انحرافِ المُشركينَ في نظرتهم العقديَّةِ لقُدرَةِ اللهِ ﷻ

ونكتةُ تَكرارِ الإسنادِ تأكيدُ تحقُّقِ امترائِهم في قُدرَةِ اللهِ ﷻ في البَعثِ؛ بيانًا لشدَّةِ عنادِهم واستكبارِهم وإعراضِهم عن آياتِ اللهِ تعالى الدّالَّةِ على خلافِ اعتقادِهمُ الرَّديءِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفِعلِ المُضارِعِ في قَولِه: ﴿تَمْتَرُونَ﴾:

استمرارُ المُعانِدينَ على اعتقاداتِهمُ السَّخيفةِ

عُبِّرَ بالفعلِ المضارعِ ﴿تَمْتَرُونَ﴾ في قَولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾؛ للإشعارِ باستمرارِهم على هذا الباطِلِ الّذي اعتقَدوهُ مِنَ الشَّكِّ في قدرَةِ اللهِ تعالى، على إحياءِ الموتَى وبَعثِهم.

عِلَّةُ حَذفِ مُتَعَلَّقِ الفِعلِ ﴿تَمْتَرُونَ﴾:

طَيُّ الألفاظِ الّتي تُدرَكُ مِن السِّياقِ، ممَّا يُستحسنُ في بابِ الإيجاز

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، حُذِفَ مُتَعَلَّقُ الفعلِ ﴿تَمْتَرُونَ﴾ من قَولِ اللهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾؛ لِظُهورِهِ مِنَ السّياقِ، والمرادُ: أنتُم تمترونَ في إمكانِ البعثِ بعدَ الموتِ، ودلَّ على أنَّ هذا الأمرَ هو المُمارى فيه قولُهُ سُبحانَهُ قَبلُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، وذلك أنَّهُ لَولا إرادَةُ التَّذكيرِ بدليلِ إمكانيَّةِ البعثِ بَعدَ المَوتِ؛ لَما كانَ لذكرِ الخَلقِ مِنَ الطّينِ، وذِكرِ الأجَلَينِ مُرجِّحٌ للتَّخصيصِ بالذِّكرِ[1].

المتشابِهُ اللفظيُّ بَينَ آيةِ الأنعامِ وآياتِ الأعرافِ، والرّومِ، وغافر:

دِقَّةُ البَيانِ القُرآنيِّ في انتِقاءِ الألفاظِ المُلائِمَةِ لِسِياقاتِها البليغةِ

قالَ اللهُ ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، وقال سُبحانَهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأعراف: 189]، وقال تعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/132.

خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ [الرّوم: 54]، وقال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [غافر: 67]؛ فتَنَوّعت هذهِ الآياتُ في ذِكرِ مادَّةِ الخَلقِ، ووجهُ ذلكَ:

أنَّ آيةَ الأنعامِ تقدَّمها قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾، فلمّا كان ذلك دالًّا على قدرةِ اللهِ سُبحانَهُ على جمعِ الأضدادِ؛ ناسبَهُ أن يكونَ المخلوقُ منهُ الطّينَ؛ لأنَّ فيه الجَمعَ بين الضِّدَّينِ، وهُما الماءُ النّازلُ مِنَ السَّماءِ، والتُّرابُ المستقرُّ في الأرضِ، والأوَّلُ شفّافٌ، والآخَرُ كثيفٌ.

وأمّا آيةُ الأعرافِ فتَقدَّمها قولُ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: 188]، فلمّا كان ذلك دالًّا على عدَمِ التَّفريقِ بين الرَّسولِ ﷺ وغيرِهِ منَ بَني آدمَ في خصوصِ ما ذُكِرَ؛ لكونِ الجميعِ بشَرًا يرجِعونَ إلى آدمَ عليه السلام؛ ناسبَهُ قولُهُ تعالَى: ﴿*هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأعراف: 189].

وأمّا آيةُ الرّوم فتقدَّمها قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الروم: 52 - 53]، فلمّا دلَّ ذلك على عَجزِ جميعِ بَني آدمَ على إسماعِ المَوتَى، ناسبَهُ بيانُ سببِ هذا العَجزِ؛ وهو الضَّعفُ الّذي خُلِقوا منه، فقال ﷻ: ﴿*ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ [الروم: 54].

وأمّا آيةُ غافرٍ فتقدَّمَها قولُ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [غافر: 59] والآياتُ بَعدَها، فلمّا كانَ السّياقُ مُتعلِّقًا بمُنكِري البعثِ؛ ناسبَهُ التَّصريحُ بقدرَةِ اللهِ ﷻ على الخَلقِ؛ حيث خلقَهُم اللهُ تعالى مِن شيءٍ لا قُدرَةَ له ولا حركَةَ، وهو التُّرابُ، فقال سُبحانَهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [غافر: 67].

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العاشر، سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 10 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-62-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 10 : سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-62-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7560922 بتاريخ 2023/12/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»